



تتبع نسفاً جمالياً واحداً في التآليف والنقش

شواهد قبور أثرية من قلعة البحرين

محمود الزمراوي

إبراهيم بن النحت الجنائزي الإزمرا
كبيراً بالبحرين في القرنين الجليليين
الأولى، خلال الحقبة التي عُرفت بها
الجزيرة باسم تابلوس، وتُشهد لهذا
الإزدهار شواهد القبور الأثرية التي
ضُمت، عددها بشكل كبير مع استمرار
عمليات المسح والتنقيب في العقود
الأخيرة. عُثر على القسم الأكبر من هذه
الشواهد بشكل أساسي في عدد من نال
المقابر الأثرية الكبيرة، كما عُثر على
بعض منها خارج هذه النطاق، ومنها تلك
التي وجدت مغمورة في ناحية من مواقع
قلعة البحرين.

قلعة البحرين على لغة ترفيع
في ضاحية السيف، بالجهة الشمالية
من جزيرة البحرين حيث تحل على
شاطئ البحر من هذه الجهة، وتجاور
قرية دريانه من الشرق، وقرية حلة عبد
الصالح من الجنوب والغرب على اسم
هذه القلعة، سكن الموقع الأثري الذي
كُرس تسجيله عام 2005 على قائمة
«اليونسكو» للتراث العالمي المهمة كأحد
المواقع الأثرية الرئيسية في شبه الجزيرة
العربية. يحتل هذا الموقع مساحة 17.3
هكتاراً، وتُشهد طبقاته الأثرية للتراث
لأربع طوبى ومواصل، يمتد من نهاية
الألفية الثالثة قبل الميلاد إلى القرن 17
من عصرنا. من هنا الموقع الاستثنائي
خُرجت مجموعات متعددة من النقى
الأثرية تعود إلى حقبة تاريخية مختلفة،
منها شواهد قبور عُثر عليها سنة 1991
بالمصادفة، حدث كانت مغمورة في
بستان نخيل يقع في القسم الشمالي
العربي منه.

تُوفى هذه الشواهد مجموعة من
15 قطعة مصنوعة من الحجر الجيري،
خُرجت من الخراب بحالة سليمة، مما
يوجب بانها نُقلت من مقبرة لم يبق تحديد
موقعها الجغرافي إلى يومنا هذا، وتُ



ثلاثة شواهد قبور أثرية من قلعة البحرين

ويتحول إلى قاعدة تحمل وجهاً دائرياً
ضخماً، المعبان لوقتاً كبيراً تحتل
الجزء الأكبر من هذا الوجه بحسب
الأنف، مستطيل وطويل، والذقن شقائ
صغيرتان مقلقتان بفصل بينهما شق
عائري بسيط. لا تدخل الحلة الزخرفية
كهدف جمالي مجاني، بل تشكل حيزاً
عن إعادة خلق الطبيعة وتنظيمها تبعاً
لخضوع روعي، وتبرز في تحديد ثانياً
الشوب الذي يحجب مفاصل الجسد.

تحضر المرأة في ثوب طويل، يعلوه
مصطف يتخلف حول الكتف الجسري،
ويتمثل على الساق اليمني. يعنو هامة
الراس بتضليل طويل يحيط بالراس،
ويتسكب على التراجعين للتمسكين
بالصدر، ترتفع اليد اليمنى نحو الأعلى،
وتفتح وانحتها في حركة تقليدية ترمز
إلى الإتيان. في القسم الأسفل، تظهر
أسابع القدمين العارية على شكل سلسلة
من المفصلات الخاصة. يحضر الرجل
المختفي في وضعية معانلة، ويتميز ثوب
قصر تعلوه شبيهاً من الثياب تنحدر في
وسط طرفه الأسفل. في المقابل، يحضر
القنبي المرد في لباس يعرف بالعباس
القريشي، وهو اللباس الإبراهيمي القديم
الذي تخلى حدود هذا العالم، وتظهر في
سائر أنحاء العالم البيزنطي والروماني
بالقرن الميلادية الأولى، وإبرز مواصفاته
حزام مقنوع حول ثوب قصير، وقطعة
مستطيلة من القماش تنسدل على الكتف
اليسرى.

يغيب الأثر الهلنستي عن هذه
الشواهد، ويحضر الأثر القريشي في قالب
محلي يشفي عنه طابعاً خاصاً، كما
في مميزات الأذن الصخرافية الكبرى،
ومنها تدر وديورا أويوس في سوريا،
والبحراني في الأردن، والحضر في شمال
العراق. يأخذ هذا الطابع مميزات خاصة
في البحرين، ويشهد لنسب محلي
يشكل رافداً من روافد هذا الإقليم متعدد
الأقطاب.

نموذج الأثري، ونموذج الرجل المختفي،
ونموذج القنبي المرد
يخرج كل من هذه التماذج عن
حدود الوجه الشخصي القوي بلامحة
الخاصة، ويمرر بعينه مثلاً لا توجد
جامعاً، والافتان هذا النموذج يتخطى
حدود سن الإنسان الفاني، فما يوجب
أنه يعبر في المرحلة الأولى عن تصور
صاحبه في حالة ناء ورائحة الأسلوب
تجويدي، يعلب عنه المانع الهندسي
التجويدي. تحضر القامة بشكل كامل،
وتظهر في وضعية الموازنة الخاصة،
ضمن إطار مستطيل يحيط بها من
الجهات الأربع، مثلاً مستحاً لها. في
الجمالية الإغريقية الكلاسيكية، يتألف
ضول الجسد من خمس وحدات قياساً
إلى وحدة الجسد، ويعكس هذا التأليف
البنية الواقعية للقامة البشرية. تُخرج
هذه الشواهد عن هذا النسب بشكل كلي،
وتحدد عن النسب المادية لتبتكر لواءها
الخاصة بتقنن الجسد ويتشامل.

آخر منها بطوراً جزئياً في قرية المقبرة،
تشكل وتلفظ هذه الشواهد لغزاً اختلفت
الآراء في تفسيره، والأكبر لهنه الوثائقية
تخطت حدود قبور القريشي، والتحدث
دلالة بخبرة جامعة يصعب تحصيل
هويتها. نُقلت الشواهد التي عُثر عليها
في بستان من بستان قلعة البحرين من
المقبرة التي حوتها في الأصل، وبات من
الاستحتمل معرفة الأسلوب الذي اعتمد في
عرخها بموقعها الأصلي. وهي اليوم
أشبه بالقطع الفنية المستقلة التي تعكس
ظوراً من أطوار جمالية النحت الجنائزي
في هذه الناحية من الجزيرة العربية.
أشهر قطع هذه المجموعة ثلاثة شواهد
عُرضت ضمن معرض كبير أقيم بمعهد
العالم العربي في صيف 1995، خصص
للتعريف بميراث البحرين، من بلون إلى
تابلوس. تُحتفل هذه القطع الثلاثة هذه
المجموعة، ويحلل الأخصر. في نمبي
كل منها نموذجاً واحداً من التماذج
التصويرية المعتمدة في هذا الميراث، وهي

ظورها في هذا البستان دون الحش بها،
وذلك خلال الحقبة الإسلامية التي شكّلت
نهاية الحضور الساساني بالجزيرة في
النهاية الأولى من القرن السابع، على ما
رأى بعض أهل الاختصاص. غير أن هذه
القراءة تبقى افتراضية في غياب دليل
يشكل سداً لها. تُدفع هذه المجموعة نفسها
جمالاً واحداً في التآليف والنقش لمانع
والعكس، ويشكل هذا النسب طرازاً من
الطراز المتعددة التي طبعت نتاج النحت
الجنائزي في هذه الناحية من ساحل
الخليج العربي بين منتصف القرن الثاني
ومتوسط القرن الثالث تصديداً. يصعب
تحديد وثيقة هذه الشواهد، كما يصعب
تحديد وثيقة مختلف الشواهد التي
خُرجت من نال مقابر البحرين الأثرية،
والأكبر أنها لم تُصنع لترفع فوق قبور
قريبة كما جرت العادة في العالم القديم.
تُظهر الأبحاث أن بعض هذه
الشواهد أُخذ في عرف صغيرة تشكل
ببوتاً لها في طرف المقبرة، ووجد بعض